امكانات الالتقاء والتنافر بين الاستغراب والتأصل لصنع ديمقراطية في الاوطان العربية التي عرفت ثورات .

(مع التركيز على الحالة التونسيـــة)

د.خالد مبروك الغانجي

لم تكن الديمقراطية غير ثقافة غربية استوردناها من العواصم الغربية ومن الفلاسفة الغربيين ضمن جميع ما استوردناه من نمط عيش ولباس ووسائل نقل طوال حقبة الخنوع الذي أعقب الحرب العالمية الثانية خاصة وموجة الاستقلالات التي اعقبتها وجاءت الى سدة الحكم بشريحة واسعة من طلاب المدارس الغربية الذين ترعرعوا في مدارسنا المحلية ابان الاحتلال او في الجامعات الغربية في الخارج .. وادخلتهم ضمن المكونات الفاعلة في المجتمع .

وليس في الامر عيب لولا ان الحياة السياسية بعد الاستقلال بدأت بمسحة غربية ترنو الى التماثل مع الاستعمار القديم وتحب ان تفصل بين تراثه القاسي في بلداننا وبين التطور الذي يملكه ..ولئن لم تحكم الديمقراطية في اوطاننا بعد الاستقلال الا انها كانت من ضمن ماتقلته الادارة من مخزون ثقافي غربي ..وقد لانكون حين تلقينا الدروس الديمقراطية عرفنا جميع مكوناتها الجينية او بعض اللمسات السحرية التي يحفظها المدرسون عادة لانفسهم حتى نسيطر على تفاعلاتها واثارها على الاوطان ومكوناتها الحضارية الثقافية مما يهدد بان تكون استمرارا لمرحلة الصراع والتصادم الحضاري الذي عرفناه مع الغرب وبضاعاته ابان الاستعمار وبعده والذي يحرص حتى الان ان يستمر المسيطر على اسرارها ونستمر نحن المستهلك لها معلبة دون قدرة او امل في تصنيعها محليا .

ولم تكن معركة التثاقف مثل الاقتصاد في صالحنا بل كنا كما هو باد للعيان نعيش حالة عجز عند المقارنة بين المستورد من ثقافة الغرب وبين المصدر من ثقافتنا ...وبين المهيمن والفاعل في حياة المجتمعات وبين الواقف كتماثيل المتاحف من ثقافتنا ومن ثقافة الغرب .

ومع ان ادبيات الاستشراق تجانب ظاهريا العملية السياسية وادواتها في الغالب لكونها ليست من الدائرة الثقافية التقليدية مثل الشعر والادب والفن وحتى الديانات فانها كما راى الباحث الفلسطيني -

الامريكي ادوارد سعيد عن صواب عملية سياسية واسعة تتجه من الغرب تجاه الشرق ورآها //تحيزا مستمرا وماكرا من دول مركز اوربا تجاه الشعوب العربية والاسلامية // [1] ..

وفيما يحمله الاستشراق عنا قدمت رؤية الحكم في العالم الاسلامي اما على انها قديمة جدا او تسلطية دموية يعكسها اسراف الحكام المسلمين في استخدام سلطانهم ضد شعوبهم ..ولم تكن الرؤية السياسية الاسلامية ضمن مدار اهتمام كبير ضمن العملية التثقافية الاستشراقية فيما كانت الرؤية الغربية ضمن اكثر ما اغرى المستغربين من الشرق العربي والاسلامي في الحضارة الغربية الحديثة .. وبقدر ما اهملت الرؤية السياسية الاسلامية في الدراسات الاستشراقية اعتبارا ان الاستشراق كان محوره الادب وما حدده الغرب من خرائط تفكير دون غيرها فان الثورات الفرنسية والانجليزية والامريكية ومضامين الحرية والعدالة التي ناضلت من اجلها وصولا الى الديمقراطية النيابية قد ابهرت المثقفين العرب الذين تفاعلوا وفكروا وبلوروا رؤية عربية للتنوير والنهضة([2]) على شاكلة عصر الانوار [3] في فرنسا ..ونشات كتابات كثيرة ورموز عربية واسلامية دافعة بهذا الاتجاه من محمد عبده الى جمال الدين الافغاني وعبد الرحمان الكواكبي وسواهم مستلهمين من الحضارة الغربية جانبا كبيرا من رؤاهم ودعوتهم الى النهوض بالامة الاسلامية ...حتى ان شيخ الاسلام في تونس محمد الطاهر بن عاشور وضع تفسيره الكبير للقران الكريم تحت مسمى //التحرير والتنوير// وكان كتابه //اليس الصبح بقريب // صورة اخرى من صور التفاعل الايجابي مع الرؤية الثقافية الغربية ..// واصطبغت الرؤى العربية الاسلامية في بدايات القرن الماضي واواسط القرن الثامن عشر بصبغة توفيقية نظريا لم تكن دائما موفقة عمليا على الارض بسبب غياب مكملات للعملية السياسية لا يظهر ارتباطها بالعملية السياسية بشكل جيد مما يجعل التطور السياسي لدينا دائما سلبيا.

---

[1])Keith Windschuttle, "Edward Said's 'Orientalism revisited'", *The New Criterion* January 17, 1999. Archived May 1, 2008, at the Internet Archive, accessed November 23, 2011.//in wikipedia.

[2]) انظر /زياد عبد العزيز مدني /تاريخ العرب الحديث وقضاياه المعاصرة /وزارة التربية والتعليم الاردنية 2002

[3]) عصر التنوير /بالفرنسية (Siècle des Lumières :مصطلح يشير إلى القرن الثامن عشر في الفلسفة الأوروبية وغالبا ما يعتبر جزءا من عصر أكبر يضم أيضا عصر العقلانية .والى نشوء حركة ثقافية تاريخية دعيت بالتنوير والتي قامت بالدفاع عن العقلانية ومبادئها كوسائل لتأسيس النظام الشرعي للأخلاق والمعرفة بدلا من الدين...و من هنا كان ذلك العصر بداية ظهور الافكار المتعلقة بتطبيق العلمانية وكان رواد هذه الحركة يعتبرون انفسهم قادة العالم إلى التطور والتحديث وترك التقاليد الدينية والثقافية القديمة والأفكار اللاعقلانية ضمن فترة زمنية دعوها" بالعصور المظلمة ."

وكان دستور تونس لعام 1861[4] صورة متقدمة للتاثير الاوروبي في الادارة السياسية للدول العربية ..والى حد ما باتت العملية السياسية في المنطقة العربية يقودها الاستغراب والعملية الثقافية يقودها الاستشراق في تكامل غريب كلعبة استعمارية تمضي الى العقل المثقف والفني وبتعبير ادوارد سعيد //اذا اعتبرنا القرن الثامن عشر نقطة انطلاق عامة الى حد بعيد، استطعنا ان نناقش الاستشراق بصفته المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق والتعامل معه معناه التحدث عنه واعتماد صورة معينة عنه ، ووصفه وتدريسه للطلاب وتسوية الأوضاع فيه والسيطرة عليه....وباختصار بصفة الاستشراق اسلوبا غربيا للهيمنة على الشرق واعادة بنائه والتسلط عليه//[5].

وعندما قفز الغرب الى التاريخ اليوناني للاستنجاد بنمط الحكم فيه وتكاثف حديث الفلاسفة حوله دون النظر باهمية للرؤية الاسلامية ظهرت ـ للغرابة الرؤية الاسلامية في الحكم ـ عند ابنائها رؤية عجوزا لايعتد بها بينما برزت رؤية اليونان الاقدم عمرا الاولى بنفض الغبار عنها وتسويقها كمفهوم معاصر حداثي للممارسة السياسية على ما فيها من ضعف بائن حتى ابان ممارستها بصورة مباشرة في اليونان مقارنة بمفهوم العدل الذي حملته ديانات السماء عموما والاسلام ـ الدين الاخير ـ بصورة خاصة.

ومع ان ديمقراطية اثينا لم تنظر الى الفقراء والعبيد والنساء والمغتربين وكانت لعبة توافق بين الاسياد الا انها هيمنت هيمنة منقطعة النظير على العقل الغربي وعلى العقل الاسلامي الذي تعلم في الغرب..ونظر للمفاهيم القريبة والمجاورة عندنا مثل الشورى نظرة تقارب الاستهزاء [6]..ويدعم تلك النظرة تاريخ الحكم الوراثي الذي هيمن على بلداننا اكثر من 1400سنة ...لكنه لم يكن الوحيد بل العالم كله كان وقتها خاضعا للتسلط و هيمنة المركزية السياسية والدينية ..ولمنظومة سلطات يجتهد

[4]) انظر د.الهادي التيمومي /تونس والتحديث اول دستور في العالم الاسلامي /دار محمد علي الحامي تونس2009 حيث يشير في بحث التحديث السياسي بالفصل الثالث الى ان / التحديث السياسي الذي جرى مابين 1864و1887) والمتمثل أساسا في صدور قانون عهد الأمان (1857) ودستور 1861 الى أهمية دور التدخل الأوروبي في التحديث السياسي التونسي وفي ظهور نخبة حداثية وبروز نجم خير الدين التونسي واضع كتاب اقوم المسالك في احداث الممالك وفيما أسماه الباحث «الثلاث المجيدات (Les trois glorieuses) في اشارة الى الثلاث سنوات الاولى من أول حياة دستورية عربية اسلامية (من 23 ابريل 1861 الى اول مايو ماي 1864.)

[5]) إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد العناني، دار رؤية، القاهرة 2006، صفحة 45.

[6]) مازال تعبير استخدمه رئيس وزراء تونس المتخلي حمادي الجبالي امين عام حركة النهضة ذات المرجعية الاسلامية يثير السخرية والتندر في الاوساط المعارضة حين وصف في خطاب جماهيري ابان الحملة الانتخابية لحزبه للتاسيسي التونسي //صيف 2011// عندما قال واصفا حكم النهضة المنتظر بانها الخلافة الراشدة السادسة// وبات مثار نكتة وتهكم يغلب عليها وصفه بالخليفة السادس.

الانسان في صنعها حتى ولو لم تكن موجودة.. وماهروب الانسان الى الحجارة الصماء لصنع الهه الا عاكسا لتلك النزعة البشرية لصنع سلطة رادعة تفرض الوفاق وتصنع التشريعات ..غير انها كثيرا ماتبتعد عن المحدد لها سلفا لتصبح طاغوطا كثيرا ماتتم مواجهته بشكل من الاشكال.

واذا استطعنا ان نسيطر على مقود السيارة وطرنا في السما ولبسنا لباسا افرنجيا انيقا يتبع اخر صيحات الموضة في باريس وروما ولندن فان الديمقراطية ظلت مرحلة عذاب وتجاذب عندنا لا تعرف مكوناتها ...وتصنع احيانا على مزاج الحاكم ..هذا يمكنه المشاركة وذاك يخشى منه ان يتحول الى طاغية فيستبعد من المشاركة في العملية الديمقراطية ..وظلت دوائر الحكم طوال مابعد الاستقلال تستند الى الديمقراطية شكلا احيانا وتنفيها احيانا اخرى من قاموسها زيادة الى الخلاف الذي سيطر لفترة من الزمن مع صعود نجم الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية بين الديمقراطية الشعبية والديمقراطية البرلمانية الغربية التي اهدرت كثيرا من الحبر والوقت والأرواح لاجل تثبيت هذه وتلك في دوائر الغرب والشرق ...وتاه بينها العرب بين مؤيد وبين رافض واوجد ذلك تراثا كبيرا من التصادم بين السلطة والمثقفين واحدث مناطق سيئة الصيت في تاريخنا.

وفي كل هذه المعارك حسب الإسلام على التسلط في الحكم وغير قابل للديمقراطية واحتاج الأمر إلى زمن طويل حتى تقبل فصائل دون اخرى المشاركة لي العملية الديمقراطية وتستمر اخرى مقتنعة بان الديمقراطية لاتعنيها وتستمر في كفاحها لنيل السلطة والاستفراد بها وبناء المجتمع الفاضل على طريقتها.

ومع ان الديمقراطية معركة تجاذبات تشهد انحرافات احيانا نحو الدكتاتورية والفاشية في الغرب حتى قبل الحرب العالمية الثانية واستمرت تجاذبات الحكم بين الدكتاتورية والديمقرايطة بائنة الى وقت غير بعيد ..فان العقل الغربي والشرقي قد اتفقا بعد الحرب العالمية الثانية عموما على انها الطريق الاوصل والاقرب الى العدل مع دخول عصر الجماهير وهيمنة وسائل الاعلام الجماهيري وتحسن القدرة على الاقناع وجلب التاييد..واذا كان الغرب قد افلح في حسم المحرمات ديمقراطيا فان الديمقراطية استمرت في العالم العربي ساحة للتضارب والتلاقح بالضرورة بين ماتلقيناه في مادة الديمقراطية كاطار للتسيير السياسي وفق رؤية الديمقراطيات الغربية وبين ماهو عندنا من تراثنا الذي طغت عليه اثار التراجع الاقتصادي والاجتماعي ومحطات سيئة في الحكم المستبد ما اوجد تناغما بين تلاميذ الغرب لدينا وبين اساتذتهم لفترة طويلة من الزمن مفادها ان الديمقراطية والاسلام لاتلتقيان ...لكن مع تزايد سيطرة الحركات السياسية ذات المرجعية الدينية على الشارع ومحاججتها للغرب بوجود رؤي واحزاب سياسية دينية مسيحية في اوروبا وصبرها على اهوال السجون ..ظهر نوع من التغاضي والمصاحبة التي قادتها الولايات المتحدة الأمريكية للحركات السياسية الاسلامية التي اذن لها

ان تدخل لعبة العمل السياسي عبر بوابة الديمقراطية التمثيلية النيابية بصور حذرة في البداية ..ثم باندفاع كبير بعد مابات يوصف بالربيع العربي والثورة التي انطلقت من تونس.

وبات منهج الحكم في عالمنا العربي مدارا تفاعليا احيانا وتنافريا احيانا اخرى بين الرؤيتين اللتين تتقاربان في القوة اذا اخذنا في الاعتبار المرجعية الشعبية لكل منهما:

- رؤية متحيزة للغرب والمدنية والحداثة لها سبق في السلطة باعتبارها قد ظلت تحكم الى حد كبير عن طريق الدكتاتوريات التي هيمنت على العالم العربي والاسلامي بعد الحرب العالمية الثانية.

- و رؤية متحيزة للدين والاصالة والسلفية ظلت مستبعدة من الاقتراب من السلطة السياسية الى وقت قريب ..ربما لان احلامها تحدثها بالهينة واستبعاد الاخرين لكنها كانت تدعم باشكال مختلفة لتستمر تشكل ثقلا كبيرا في الشارع السياسي العربي واحتياطيا مرجعيا لاي تطور سياسي لاحق ..وبدأ ذلك مع ظهور حركة الاخوان المسلمين في مصر في العشرينات من القرن الماضي ووصولا الى تنظيم القاعدة الذي انشاه اسامة بن لادن في التسعينات ومرورا بهيمنة رؤية المرجعيات الدينية السنية والشيعية في العالمين العربي والاسلامي على الشارع وتاثيرها في سلوكه الى جانب الواعز الديني الداخلي للمجتمع الذي يستهان به كحزب سياسي غير مرئي لا يشارك في الانتخابات ولا ينافس احدا انما لديه القدرة ان يغلب طرفا على طرف اخر.

وتعيش الرؤيتان على ابتعادهما معركة الالتقاء والاختلاف كاشد ما تكون المعارك...وتصنعان صداما ثقافيا حضاريا واضحا ربما ينتهي بتغلب احدى الرؤيتين اللتين طرحهما الغرب ايضا :

- رؤية ارنولد توينبي في التحدي والاستجابة والذي راى ان الحضارة الاسلامية قادرة على التصدي للتحدي والرد عليه وبالتالي هيمنة الرؤية الاسلامية.

- او الرؤية التي طرحها هينتنغون وفوكوياما حول ارتباط الاسلام بالارهاب ومعاداته للديمقراطية ودخول عصر الديمقراطية بصورة نهائية وهنا لابد ان تتضاءل الرؤية الاسلامية في الحكم من خلال التخلي عن جانب من نصوص الشريعة الاسلامية التي تثير الخوف من تطبيقها ويستند اليها في تاكيد المظهر العنيف للاسلام وبالتالي التعامل وفق النصوص الوضعية الغربية ومصاحبة السلوكيات الاخلاقية المهيمنة في الشارع الغربي[7].

[7])اثار موضوع تطبيق الشريعة الاسلامية جدلا واسعا داخل المجلس التاسيسي التونسي عند مناقشة بنود الدستور واضطرت النهضة ذات الاغلبية في المجلس ان تتغاضى عن المطالبة بتثبيتها حفاظا على التحالف الذي صنعته مع حزبين حداثيين اخرين .

والان فان المعركة التي اخذت اوجها في تونس ومصر بدات تصنع تراثا من الاجتهاد الفكري اللصيق بالناخبين والشارع يصنعه السياسيون على وسائل الاعلام المرئية مما قرب العملية من الديمقراطية المباشرة التي حاولت اثينا ان تثبتها قبل قرون طويلة من الزمن ...دون النظر كثيرا الى مخاطر محتملة يمكن ان تفرزها التناقضات والالتفافات التحزبية من حول الدوائر السياسية القائدة على وحدة الاوطان وما يمكن ان تفرزه من انماط اخرى من الاوطان الرخوة التي تغيب عنها فاعلية الدولة وحزمها خاصة مع تنامي دور مؤسسات القطاع الخاص وافتكاكها بمختلف الطرق لمساحات واسعة من سلطات الدول على شعوبها التي عرفناها نحن جيل مابعد الاستقلال وبنينا عليها امالنا عندما كانت الحكومات المتحكم الرئيس بعيش الناس وتعليمهم وتوظيفهم ودوائهم.. وربما حتى لباسهم واختياراتهم .

هذا التسليم من قبل الدولة لسلطاتها بات يتطور تصاعديا على نقيض مع حجم ما ينتظره جمهور الناخبين من الدولة وقيادتها المنتخبة ...حين يتوجهون الى صناديق الاقتراع معولين على ان الدولة والمنتخبين هم من سيقرر مصير عيشهم بينما تتوسل الدولة ودوائر الحكم للقطاع الخاص كي يسهم في تنمية البلاد ويمنح العاطلين فرصا للعمل.

وفي معركة باتت وهمية باعتبار ان عيش الناس اصبح بيد المؤسسات المالية المهيمنة داخليا وخارجيا ولاتملك الحكومات سلطات كبيرة عليها تتنافس الرؤى المتناقضة على ادارة البلدان بطريقة يمكن ان تعصف بها وفي الطف الحالات تجعل قرارها مخنوقا مقيدا ضعيفا غالبا...وهو وضع جديد مازال كثير من النشطاء السياسيين لم ينتبهواله.

ومن ثم فان بحثنا هذا سيؤكد البعد الثقافي للظاهرة السياسية الحديثة الواقعة تحت هيمنة الرؤى الغربية على العقل الشرقي والتي تغطت بغطاء الديمقراطية وحاجة الشعوب للحرية من ناحية وابعاد التناقض السياسي المسيطر في جميع البلدان العربية التي دخلت بوابة الديمقراطية وآفاقه وتأثيره على وحدة الاوطان وادائها واذا كان هناك حاجة لوضع اطار للتنافس السياسي في منطقتنا ياخذ بعين الاعتبار استمرار ثقلها السياسي الحضاري التاريخي في العطاء لتخضع له جميع التيارات السياسية غربيها وشرقيها التي تنشط في العالم العربي...أم ان جميع هذه التيارات ستجد نفسها بالضرورة تخضع لذلك واذا كان هناك من مؤسسات تحفظ المجتمعات من خطر التناقض السياسي تدير العملية عن بعد في المجتمعات التي قطعت شوطا في هذا المجال ولا نملكها نحن.

واصبح بالضرورة بلورة مفهوم جديد للسلطة التي نجدها في ذات البلدان التي مستها الظاهرة الديمقراطية بعد الربيع العربي اما خاضعة للمفهوم القديم في الممارسة العنيفة للسلطة او تعيش مرحلة تردد وضعف تحت تاثير الخشية من اتهامها بالدكتاتوية المبطنه وهي عملية تديرها الطبقة

السياسية بسطحية رؤاها وفي احسن الحالات بمساعدة طلاب القانون الدستوري الذين لا يقلون سطحية فيما تغيب الحاضنة الثقافية ببعدها الحضاري التاريخي الذي يعد الثابت الاساس في اوطاننا العربية والاسلامية في غياب المؤسسة الاقتصادية المهيمنة في الديمقراطيات الغربية...وتحتاج هذه الاجتهادات جهدا كبيرا لكي تثبت انها المستجيب لقلق الشعوب التي فاق ضجرها الأنماط التعبيرية القديمة وصنعت سلاحا الاحتراق الذي سافر بين البلدان كأنما كانت الرسالة التي كان كثير من الشباب والشيوخ ينتظرونها ليعبروا عما داخلهم بصورة لائقة ويغيبوا .

- الثورات العربية و الديمقراطية

فرضت الديمقراطية الغربية نفسها فرضا على البلدان العربية التي عرفت ثورات..ولم تكن مطلبا مباشرا للشارع الذي استمر بعيدا عن رؤية للادارة السياسية المستقبلية وانحصرت مطالبه في الجوانب الاجتماعية قبل ان تتحول الى دعوة لاسقاط النظام دون تحديد كيفية خلافته.. والى حد كبير تسرب الغرب من خلالها ليبسط رؤيته على ثورات دون قيادة او ايديولوجية وصناعة ثورات جديدة كما يتخيلها وفي البلدان التي يريدها ..واطلق سراح الحركات الاسلامية من عقالها لتقود ولتتحرك في الشارع باصنافها السلفية والمحدثة في ادارته .. لكنه الى ذلك استفاد في تونس ومصر من مخزونه التقليدي في العالم العربي ممثلا بترسانة من المثقفين والمسرحيين والشعراء والفنانين والجامعيين والسياسيين المثقفين على طريقته ليصنع طبقة سياسية تعلن الحداثة وتحذر من هيمنة الرؤية الدينية التي يمكن ان تقود البلاد الى نموذج عيش مختلف يهدد حياتها المنفتحة على الغرب وعلى سياحته التي تشكل عنصرا رئيسا في حراكه الاقتصادي [8].

---

[8]) اتسمت الثورة او الانتفاضة التونسية بأنها الأكثر التصاقا بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للشعب وبالتالي بالمحرك الأساسي للثورات في مختلف انحاء العالم وطوال التاريخ ..وقد انطلقت الثورة التونسية بكثير من العفوية ومن دوافع محلية وتحمل الشباب المواجهة مع الرصاص والأذى وأجبرت الحاكم على ان يظهر جبروته ودمويته مما أعطاها صفة ثانية طغت فيما بعد على المطالب الاجتماعية الاقتصادية وعلي الثورات العربية اللاحقة وهي صفة //الثورة لاجل الديمقراطية وحقوق الإنسان// بعدما كانت بالأساس// ثورة اجتماعية //.. وتبعتها في وقت سريع مصر واليمن.

انطلقت الثورة في تونس تضامنا مع الشاب محمد البوعزيزي الذي استشهد بعمل ذاتي حين سكب البترول على نفسه وأشعل النار في جسده بمخزون من القهر الاجتماعي والسلطوي حين لم يجد من يسمع له بين السلطات المحلية عندما تظلم من قهر شرطية من ابناء مدينته اهانته وتبعه الشبان الذي ماتوا انتحارا من بعده في مناطق القصرين وسليانة وكان احتجاجهم على الفقر والتهميش الاجتماعي وتحت تأثير حالة الاحباط التي يعيشونها .

ورفعت المدن والقرى المجاورة شعار // التشغيل (أي اتاحة فرص العمل) استحقاق يا عصابة السراق // بما يحمله من معنى اجتماعي اقتصادي يعكس تخلي الدولة عن طالبي العمل وعجز القطاع الخاص عن القيام بدوره وهو الشعار الذي قابله الرئيس التونسي المنتهي زين العابدين بن علي بان وعد بتوفير 300 الف فرصة عمل للعاطلين خلال فترة قصيرة (تحت شعار)

وبدا صعود الإسلاميين للسلطة دافعا قويا لتجميع القوى الليبرالية الغربية حول بعضها والتشكل في جبهات فيما يخضع جانب من الشارع لتجاذبات الطرفين ويساندهما باسلوب عدائي ..وفيما تصنع الجبهة الشعبية ونداء تونس محورين رئيسيين للحداثة تلتف الحركات الاسلامية باصنافها حول النهضة رغم خلافات اعقبت حريقا اندلع في السفارة الامريكية ابان الاحتاج على شريط سينمائي انتج في الولايات المتحدة يسيئ لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم واضطرت النهضة ذات المرجعية الاسلامية باعتبارها تقود الائتلاف الحاكم ان تواجه حلفاءها السلفيين وترمي الكثير منهم بالسجن

وصار القطاع الخاص المتخفي في ظل الدولة الى حد ما في واجهة الاتهام بالتقصير باعتباره قاطرة الاقتصاد كما تكرر الوصف كثيرا في البلدان التي اتبعت نصائح صندوق النقد الدولي .

واستمر النداء على نفس الوتيرة الاجتماعية الاقتصادية تسانده منظمة العمال العتيدة //الاتحاد العام التونسي للشغل// التي تراجع دورها طوال حكم الرئيس ابن علي الى يوم 14 جانفي // يناير// حيت تطور النداء الى نداء سياسي ظل يتكرر بعد ذلك وهو // الشعب يريد اسقاط النظام// وهو الشعارالذي ظهر في العاصمة تونس يوم 14 يناير - جانفي - اليوم الذي ركب فيه الرئيس التونسي الطائرة الى المملكة العربية السعودية مع عائلته .. وعكس النداء تفاعل المطالب الاجتماعية للعاطلين عن العمل مع المطالب السياسية للمثقفين والسياسيين وقادة الاحزاب واتحاد العمل لتنتقل الثورة من المرحلة الاجتماعية الى مرحلة جديدة مختلفة الى حد ما عن المطالب الاساسية للشباب الجامعي العاطل عن العمل والذين كانوا وقودها الاول .. وهي المرحلة السياسية ..وهو المطلب والمرحلة التي غرقت فيها الثورات العربية بعد ذلك - بما فيها الثورة التونسية - دون مرور بالمرحلة التونسية الاولى - وهي المرحلة الاجتماعية - .

اتسم النمط التونسي بطابعه السلمي المدني حيث تلقت فيه الجماهير القدر الأكبر من الاذى نتيجة مواجهتها بالرصاص منذ البداية بأمل إذلالها وإخماد ثورتها في مهدها قبل ان تمتد وتتسع لتكتسح إرجاء الوطن ..وهذا النمط تميزت به ثورة تونس وثورة مصر وثورة اليمن ...وكان المحرك الأساسي فيه الضغوط الاجتماعية وتراكم خيبات الاقتصاد الرأسمالي الذي قضى على الطبقات الوسطى وصنع طبقتين // طبقة فقيرة وطبقة اثرت بسرعة ومازالت الفرص متاحة امامها لتثرى اكثر بفعل العلاقات التي صنعتها فيما بينها ومع البنوك ورضى الصناديق الدولية عليها لانها تنفذ سياساتها في اخراج الاقتصاد من يد الدولة رغم ان كثيرا من رؤوس الاموال الناشئة تفتقد الى الخبرة الاقتصادية وترتكب اخطاء تسيير كبيرة ولم تفلح في ان تكون قاطرة الاقتصاد // .. وان كانت كذلك فهي تجر عربات من العاطلين عن العمل... من جميع اصناف المجتمع المتعلم ومحدود التعليم ..لكن مع استفحال أعداد المتخرجين من الجامعات تشكلت شخصية متحدية عند الشباب فاقدة لإحساس الحذر القديم ..وكثيرا ماعبرت عن ذلك بهجرات شماتة بالنفس ينفذها الشباب التونسي والجزائري والمغربي الى الشواطئ الاوروبية على متن مراكب صيد لايطمئن اليها الراكب حتى للقيام بجولة شاطئية ..//.

ما لفت الانتباه ان ثورات تونس ومصر اتسمت بظاهرة اخرى وهي حياد الجيش مع ان تونس التي عرفت انتفاضتين مماثلتين في 1977 و1984 لم يكن الامر فيها كذلك ..وهو على الاكثر بالنسبة لتونس نتيجة حذر شديد من قبل الرئيس التونسي السابق من خروج الجيش من ثكناته ..وماخشيه قد وقع ..فبمجرد اعلان حالة الطوارئ تطورت الامور بنسق سريع واصبح الجيش على مشارف قصر قرطاج ...وتطورت الامور بالطريقة ذاتها في مصر والى حد ما في اليمن وباتت الحياة السياسية تحت رقابة الجيش دون ان يكون متورطا ظاهريا.

وكانت المرحلة السياسية أو الثورات السياسية بوابة الدخول الاجنبي والرؤية الامريكية بإدماج الإسلاميين في جولة سياسية جديدة في العالم العربي بعد ان كانوا محرومين منها ايضا بقرار امريكي - اسرائيلي - اوروبي ..

تحت تاثير غضب السفارة الامريكية ..وتطور الامر الى ان اضرب الكثيرون من المعتقلين عن الطعام ومات اثنان منهم جوعا.

وفي مصر تشكلت جبهة الانقاذ بلفيف مماثل من الشركاء غير الدينيين لكن اضطراب خطاهم وترددهم جعل الشارع يتحرك خارج ادارة الجبهة ويصنع عصيانه من جديد

وفيما تبدو اللعبة السياسية خارج اطار التاثير على التنمية التي ثار من اجلها الشباب في ثلاثة بلدان عربية مؤقتا على الاقل استمرت الحركات السياسية النشطة توغل في تعميق التباين والفجوة من جهة بين قناعات غربية وبين قناعات شرقية يفترض ان تكون ممثلة بالتيار الاسلامي الذي وصف بالصحوة وبالتيار القومي العربي الذي مازال دون تسوية خلافاته القديمة مع التيار الاسلامي وبين التيار الغربي الليبرالي واليساري .

- الفجوة تتعمق -

تبدو الديمقراطية في حاجة الى وعاء حضاري للتحرك داخله...وليست حركة حريات منفلتة في المطلق..والا باتت الاوطان في خطر ..وقد فشلت تقريبا حالات العمل السياسي الانتقائي ..في صناعة حياة سياسية مفتوحة وانتهت جميعها الى ابواب مسدودة بعد ان قضت الانظمة التي عتمدتها في مصر وتونس واليمن في السلطة ردحا من الزمن غير قليل.

وتعيش الدولة العربية حاليا المرحلة الثانية محاولة صناعة تعايش بين الحضارة الغربية والحضارة الشرقية وهو تعيش يتم على مضض ومازال لم يعطي ثماره لكن الإرهاصات الاولى لا توحي بكثير من الوئام .

<u>النموذج التونسي والمصري</u>

طوال الايام الاولى التي يجري فيها التحضير للانتخابات في تونس ومصر جرت اشكال من التعايش بين الطرفين الغربي والشرقي ..تجمعهما المصلحة المشتركة والامل في الفوز وتاثير السفارات ومن تمثلهم والذين مافتئوا يبشرون خلال هذه المرحلة بحرصهم على نجاح تجربة الممارسة الديمقراطية ..

في تونس تقدمت حركة النهضة الاشهر بين الحركات الاسلامية والتي لديها تراث من السجون والمنافي والقتلى لتحصيل رخصة للعمل السياسي وتشكيل حزب وحصلت عليه ..وقد فوجئ التونسيون بكم التونسيين الذين وفدوا من كل مكان لاستقبال قائد الحركة الذي كان يعيش في المهجر منذ23 عاما ثم فوجئوا بحجم الذين يملؤون ساحات المهرجانات الخطابية والتي لجات في كثير من الاحيان الى ملاعب كرة القدم لاستيعاب اعداد الوافدين لحضور المهرجانات والحملات الدعائية للانتخابات

البرلمانية بعدما قرر التونسيون انتخاب مجلس تاسيسي يعيد ترميم الحياة السياسية التونسية وبناء جوانب منها من جديد.

واظهرت الحركة الاسلامية شكلا من البراغماتية سمح لها بالتفاعل ايجابيا حتى مع حزب العمال الشيوعي وشكلت معه ومع التكتل من اجل العمل والحريات وهو حزب ليبرالي ذي ميول غربية ومع المؤتمر من اجل الجمهورية نوعا من التحالف السابق للانتخابات والتناغم في القول ..انتهى بفوز النهضة بحوالي40 بالماية من مقاعد المجلس يليها التكتل والمؤتمر بحوالي ال15 بالمائة من المقاعد لكل منهما ..لتشكل معهما تحالف للحكم بعد الانتخابات فيما فشل الشيوعي في تحصيل اصوات .

وما ان بدا العمل انطرحت إشكاليات اعداد دستور جديد للبلاد ..وبدات التجاذبات حول مواصفات تونس من حيث انتمائها الديني فبينما تتجه الاصوات الممثلة للتيارات الاسلامية الى وصف البلاد في اول بند بانها دولة اسلامية علت الاصوات المستغربة تندد وتدعو الى حذف الانتماء الديني من الدستور وتاكيد علمانية الدولة ..وجر ذلك جدل اخر حول هل يوجد تناقض بين العلمانية والدين وفيما تمسك المتغربون بنموذج الدستور التركي نموذجا في التنصيص على ذلك ذهب الاسلاميون الى المحاجة بان التناقض بين العلمانية والدين محض رؤية فرنسية لانجد لها اثرا في التفكير الانجلو ساكسوني البريطاني والامريكي وحتى في باقي اوروبا كالمانيا وايطاليا..وابقي على تسمية اعتمدت في بداية الاستقلال حين وصف الفصل تونس بصيغة //تونس دولة عربية دينها الاسلام //

ثم توالت الصدامات حين طرح موضوع مرجعية الشريعة الاسلامية للاحكام القانونية او حين راى احد قيادات النهضة التاريخيين ضرورة تطبيق حكم الحرابة على الشباب الذين يعتصمون امام المصانع والمؤسسات ويعطلون حركة العمل .

وتملك الحركة الاوروبية الغربية فيلقا من اصحاب الالسنة الطويلة واصحاب الحجة من قادة الاحزاب اليسارية واليمينية على حد سواء واضطرت الحركة الاسلامية الى اظهار نرفزة في خطابها ومجابهة الاعلام الذي بات مسموعا بدرجة كبيرة والذي فسح المجال لهؤلاء بالحديث باوصاف تحقيرية كثيرة من نوع اعلام العار ومرتزقة العهد السابق والاعلام البنفسجي نسبة الى اللون المفضل للرئيس التونسي السابق زين العابدين بن علي واقام مناصروها اعتصامات امام جهاز التلفزيون ..

وكانت تهمة الجهات المتغربة ان النهضة تريد ان تستفرد بالاعلام لكسب المرحلة القادمة وتمرير برامجها والحد من الصوت المعارض.

والحقيقة لاتبدو كذلك ..انما فزع اصاب الشق المستغرب في البلاد حين اكتسحت النهضة البرلمان فيما انبرى انصارها السلفيون الذين لم يدخلوا الانتخابات يهيمنون على الساحات

..وينشؤون خياما لنشر الدعوة في كل مكان بلغ بهم ان بدؤوا يناولوا السياح الاجانب بعض التعاليم الدينية المكتوبة في نوع من الدعوة الدين وحثهم على الحشمة حين يرتادون الشواطئ والمقاهي .

وفي حادثة اخرى منعت كلية الاداب بمنوبة من احواز العاصمة تونس منقبات من دخول المحاضرات ..لتنطلق حربا لاحدود لها بين الشق الغربي والشق الشرقي وضرب الشباب السلفي خياما في مداخل الكلية وبدؤوا اعتصامات متواصلة ..تصلهم مؤونتهم كل وقت من جماعات مساندة بينما يفترشون هم المداخل ويرفعون شعارات تطالب بحق المنقبات في الدخول بزيهن الذي ترفضة الكلية بحجة الامتحانات والضرورات الامنية.

وبلغت المسالة اوجها عندما قفز شاب من الشباب السلفي الى مبنى في مدخل الكلية لنزل علم تونس الاحمر والابيض ويضع مكانه العلم الاسود السلفي المعروف ..فماكان من احدى الطالبات السافرات الا ان قفزت هي الاخرى الى اعلى المبنى لتدخل معه في صراع صورته الاجهزة الجوالة ووضع على صفحات التواصل الاجتماعي وطاف بين الشباب واطلع عليه الجميع عندما عرض على شاشات التلفزيون ...وفيما اصبحت الطالبة بطلا وطنيا حداثيا نما الحديث بقوة حول دور النهضة الحاكمة في تطويل يد السلفية ومايمثلونه من خطر على اختيارات البلاد التقليدية كبلد منفتح على الحضارة الغربية يلبس لباسها وياخذ برفاهها ورؤيتها للحياة ..ونوقشت المسالة في البرلمان واخذت بعدا تصاعديا تنقل بين الجامعات .

وساعد الشق المستغرب على اظهار فزعهم حالة الكساد في اوروبا التي لم تعد تساعد العائلات المتوسطة على القيام برحلات سياحية في الخارج وهي الفئة التي تتعامل معها السياحة التونسية وبالتالي كان السواح الاوربيون مقلعون عن السياحة بسبب صعوبات اقتصادية وليس فزعا من النهضة والتحولات الامنية في تونس.

<u>اتجاه تصاعدي للشقاق : حادثة السفارة الامريكية وحرق مقامات الاولياء ومقتل شكري بلعيد</u>

اوقع حرق السفارة الامريكية ومدرسة تابعة لها ابان الاحتجاج على شريط صنع في امريكا وظهرت منه مقتطفات على غوغل في سبتمبر الماضي الائتلاف الحاكم بقيادة النهضة في حرج شديد وبدا وكانه طريق الانفصال والقطيعة داخل الرؤية التاليفية التي حاول ان يصنعها تحالف حزب ديني مع حزبين غربيي الهوى ...وبات يشكل حاجزا امام استمرار العلاقة بين الاطراف الثلاثة لان الحزبين الليبراليين سيكونان مهددين بفقدان انصارهما او التفتت والانقسام.. واجتهدت النهضة في ان تغالب العملية بالاستجابة سريعا لمطلب ملاحقة عناصر سلفية ظهرت صورهم الاشرطة المتداولة في حريق السفارة لترمي بهم في السجن ..ولم تلفح الاضرابات عن الطعام التي شنها بعض القيادات الشابة السلفية في السجن في اثناء الحركة عن قرارها حتى بعد ان توفي اثنان منهما بعد انهيار صحتهما

..وبدات الحركة تخشى خسارة جانب من قاعدتها الانتخابية في حال استمرار الضغط عليهم ..

وقبل ان تتعافي الحركة من الحادثة الدبلوماسية التي جلبت تدخلا امريكيا كبيرا واستياءا وعقابا سياحيا ..كانت الحركة في مواجهة مع السلفيين الذين انطلقوا في عمليات حرق متواترة لما يعرف بأولياء الله الصالحين في كامل البلاد ليصل عدد ما احرق منها حوالي اربعين مقاما بينها مقامات كبيرة القيمة والرمزية بين السكان منها مقام //سيدي بوسعيد الباجي/ في ضاحية العاصمة لتجلب ـ وللغرابة ـ تعاطف الشق الغربي وحتى اليساري الذي فيهم من هم ملحدون .. وللامانة كانت حجتهم سليمة ..حيث مهما بلغ عدم اليقين والاعتقاد في هذه المقامات لاينبغي ان يصل الامر الى ان تتولى مجموعة بنفسها خارج اطار سلطة الدولة وبطرق شنيعة حرق اضرحة الاولياء التي احيانا تكون متبوعة بمساجد ومافيها من قران ونبش الاضرحة وتحطيمها وترك عظام الدفين مكشوفة دون تاثر من أي نوع ..ماينبئ بوجود استعداد نفسي عدواني غريب لفعل اشياء كان المجتمع التونسي يتوقع انه تخلص منها ...وبالتالي بات على الحكومة ان تواجه وتعاقب الفاعلين ..الامر الذي لم يكن بالقدر المطلوب ودفعت الحكومة باتجاه التحقيق البطئ ماجلب الاتهام من الجهات المستغربة نفسها ان النهضة لايعنيها الا اصوات الانتخابات التي بايدي السلفيين.

وفي جحيم الاتهامات والتحذير من تغول الظاهرة السلفية العنيفة كان الطامة الكبرى حين استفاقت البلاد على اغتيال واحد من ابرز قيادات مايعرف بالجبهة الشعبية المشكلة حديثا والذي كال اتهامات كثيرة للنهضة ولانصارها السلفيين وهو زعيم الوطنيين الديمقراطيين شكري بلعيد .وباتت الاتهامات تتوجه مباشرة الى زعيم الحركة والى الحركة ككل لتتراوح بين الضلوع مباشرة في القتل والتقاعس في ملاحقة الاتجاه العنيف في السلفيين .

وعاشت البلاد على وقع اتهامات متبادلة وارتفع منسوب الاختلاف والتخندق بين الجانبين المستغرب والمستشرق درجات عالية لم يحد منها الا حركة قام بها رئيس الوزراء حمادي الجبالي لم تبدو بعيدة عن رؤية الجيش الوطني الذي يحرس حالة الطوارئ في تونس منذ سقوط حكم زين العابدين بن علي وهي الاستغناء عن الاحزاب السياسية تماما وتشكيل حكومة كفاءات //تكنوقراط// لتذهب بالبلاد الى انتخابات سريعة .

ومن هنا تظهر حدة التموقع بين الجانبين الشرقي والمستغرب وماتزال البلاد حبلى بصور مماثلة عكستها حالات استنجاد بالشارع والناخبين في كل مرة ..فقد اغترت الاطراف المستغربة باعداد من شيعوا شكري بلعيد الى مثواه الاخير وحلا لهم الانطلاق في الخيال امام ارتباك حركة النهضة امام هول الاتهام الذي تعرضت له وماصاحبه من حديث عن دخول تونس الى الأجواء اللبنانية وغير اللبنانية ليتحدثوا عن مليون ونص مشيع في العاصمة وحدها لعدد لا يتجاوز الخمسين الفا في اقسى

التقدير مثلما تبينه صور الجو التي صورتها المروحيات التي صاحبت الجنازة.

النهضة قابلت ذلك بما وصفته بالمليونية حين دعت انصارها للتجمهر بعد اسبوع في شارع بوقيبة مايوحي عمليا بان الحالة اللبنانية باتت موجودة فعلا في تونس...وليست مجرد احتمالا مستقبليا.

وبدأ اعلان السلفية التي تنقسم الى علمية وجهادية عن نفسها كمرجعية دينية اساسية في تونس تعمق الخلاف الموجود اصلا ومرده شعور الفئة التي تشبعت بروح المدارس الغربية وجامعاتها واسلوب حياة الغرب بانها المالك الفعلي للبلاد سيما ان نمط العيش الذي يخالفه السلفيون قد اخذ طريقه بقوة الى سلوك العائلات التونسية المرفهة خاصة ..حتى المتدينة منها ومنحها عاداته الجنسية المتحررة نسبيا والترفيهية والغذائية والمظهرية ودعمه قرب المسافة وتعويل مبكر للعائلات التونسية على الهجرة الى بلدان اوربا الغربية لتحسين مستوى عيشها وميل شديد لدى مؤسس الدولة التونسية الحديثة الحبيب بورقية الى تجذير النمط الأوروبي في العيش في بلاده بكل الطرق وتقليص نفوذ الرؤية الدينية الى ابعد الحدود ومحاصرتها داخل أسوار المدينة القديمة للعاصمة التونسية والاستعاضة عن اللغة العربية باللغة الفرنسية في ادارة الحياة وجلب المعرفة والتعليم والادارة.[9]

ومازالت السلفية تدفع النهضة حبا وانتقاما الى الخلاف مع الاطراف المتاثرة بالغرب ..بينما تستمر الاطراف المقابلة المستغربة في نهج انحدر مؤخرا الى شباب المدارس حين ركب شباب تونسي موجة رقصة شبابية استعراضية لاتخلو من خدش للحياء تعرف ب// هارليم شايك // وينفذوها في احدى مدارس العاصمة لتاخذ طريقها الى معاهد اخرى وسط البلاد وتحدث خلافات وتدخلا من قبل الشرطة ..مايشير الى اشكال من الهجوم المعاكس الذي بداته المجموعات الحداثية المعارضة للتيار الديني.

ويتوقع ان يستمر الخلاف طويلا خاصة بعد اعلان الداخلية التونسية التي يقودها على العريض احد قيادات النهضة وهو مرشح لمنصب رئاسة الوزراء ان قاتل السياسي التونسي شكري بلعيد هو من شباب حركة دينية متطرفة معناه من الصنف الجهادي للسلفية ...تجري ملاحقته الامر الذي اوجد صنفين من التعقيب:

- صنف ديني سلفي : يتهم النهضة بان التهمة جاهزة لديها والوجهة هم السلفيون.

- وصنف حداثي : مفاده ان النهضة وراء الحادثة واستخدمت الاتجاه السلفي للتنفيذ..وقد غاب الشاب المنفذ عن الانظار بتواطئ ..وقد يكون غادر البلاد..وبدا الخطاب المستغرب يدور حول تحميل الحركة المسؤولية وليس من نفذ.

[9]) انظر بحث لي "اللغة العربية في دوامة الأمن الاقليمي المفقود"مجلة العربية الاماراتية / اغسطس 2009.

وتبدو المعركة على طريق التصعيد طالما استمرت الرؤى السياسية المحلية تتغذى من تراثها القديم الغربي والشرقي دون احداث رزنامات عمل ياخذ بها الجانبان ودون تحديد اطار حضاري للعمل السياسي ياخذ في الاعتبار الخشية الكبيرة من العودة الى تنفيذ الحدود التي تنادي بها الشريعة ومقاومة النمط الغربي في الحياة الذي انسه الناس واختلط بدمهم وسوكهم اليومي ...وسيتواصل الصراع بين الرؤية الغربية والرؤية الشرقية في السياسية التونسية وستتعمق اكثر مع تناغم السياسية الفرنسية مع معاداة التطرف في تونس واعلان وزير داخلية فرنسا استياء بلاده من تفاقم التطرف الديني فيها تزامنا مع اقدام بلاده على مقاومة الانفصاليين الماليين الذين يحملون الصورة الجهادية.

الديمقراطية العربية امتداد للامن الاقليمي الغربي.

انقلبت الديمقراطية مع الزمن الى إيديولوجية جماعية تجمع المتناقضات ..وحتى الاحزاب ذات الرؤية الاشتراكية انسجمت مع اللعبة الديمقراطية على حساب صفاتها الاشتراكة والشيوعية[10].

ولم تعر الاطراف السياسية المتقدمة للانتخابات اهمية كبيرة للطابع الحضاري للمنطقة ودخلت من مدخل حرية الراي ومجموعة قيم تعلنها البلدان الديمقراطية ولا تجتهد في تطبيقها الا لديها ..حيث سقطت باستمرار في عملية انتهاك حقوق الانسان بجميع اصنافها عندما يتعلق الامر بالمنافسة الاقتصادية وبتهديد نمط عيشها المرفه ..

وتعاملت البلدان العربية مع الموضوع الديمقراطي على انه معركة افكار وصندوق انتخابات واهملت البعدين الحضاري والاقتصادي الذي لا تتحكم كثيرا في مداخله والذي كثيرا مادفع البلدان الديمقراطية الى التغافل عن مبادئها الحقوقية وفرض احتلالات مدمرة للبشر وللبلدان متحصنة وراء مثل لم تلتزمها كثيرا اثناء الاحتلال وامتصاص ثروات الشعوب [11].

---

[10]) الحزب الشيوعي التونسي غير اسمه الى حزب التجديد مباشرة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ..وحزب العمال حذف تسمية الشيوعي من صفته بعد انتخابات 2011 التي لم يحقق خلالها أي فوز برغم شعبية زعيمه حمة الهمامي .

[11]) تحصنت الديمقراطية الغربية دائما وراء جدار من المصالح والمثل الاجتماعية المهمة لديها ابرزها الرفاه الاقتصادي وهي المثل التي كانت في الغالب على نقيض مع العالم العربي الذي يجد نفسه جغرافيا وحضاريا في الجهة المواجهة من العالم الغربي ممثلا في اوروبا الغربية التي انطلقت منها الديمقراطية الغربية والاشتراكية على حد سواء واستمرت القارة الاوروبية دائما محور لقاء العالم الغربي بحروبه ومصالحه الاقتصادية والسياسية وانطلاقه في مواجهة العالم العربي في الجنوب والشرق .

وبحكم المصلحة الاقتصادية والصراع من اجل استمرار الرفاه الاقتصادي كان مفهوم الاستعمار اكبر مدعمات نمو الديمقراطية في العالم الغربي لانه المولد الرئيس للرفاه الاقتصادي في المجتمعات الغربية ..وبات بالتالي ضروريا للغرب

وفي عام2002 اطلقت حكومة الولايات المتحدة رؤية جديدة للامن القومي اطلقت عليها اسم "استراتيجية الامن القومي للولايات المتحدة الامريكية "اشتملت على النظرية العسكرية الأمريكية الجديدة التي ترغب من خلالها في مواجهة الإرهاب الذي ضرب الولايات المتحدة الأمريكية في سبتمبر2001 والذي شكل تحولا استراتيجيا واسع النطاق.

ان يبقي على حالة من العداء مع المنطقة العربية مغلفة في الغالب بمفهوم الصداقة التي تقتصر عموما على العلاقة من السلطات الحاكمة فيه لتمتد الى تشكيل نوع من النومنكلاتورا الاجتماعية في العالم العربي ايضا تتشكل في الغالب من خلطة من أصحاب المصالح الاقتصادية ومن المثقفين الذين انحازوا للرؤية الغربية وحتى من هجرة عمالية استفادت من تواضع الامكانات الاجتماعية المحيطة والبؤس في البلدان الأصلية ومن بعض قوانين الاستقطاب الغربي وازدواج الجنسية لتظهر بمظهر الفئة المرفهة ذات النمط المعيشي الغربي وتنساق بالتالي مع البقية لتشكل دائرة دعامة فعلية للحضور الغربي في البلدان العربية ولمصالحه واحد طرفي صراع تتكسر عليه سهام المعارضة التي يمكن وصفها بانها ذات انتماء محلي ديني او قومي وحتى قطري لان هذه النومنكلاتورا محصنة بقوة من أصدقائها في الغرب .

وضمن المنظومة الغربية انضافت الى الجوقة المضادة للعالم العربي ديمقراطية اخرى وضعت نصب أعينها بناء وطن على ارض الغير ضد كل مفاهيم الحق والحرية والعدالة ومكافحة الاستعمار التي ظهرت بقوة اثناء الحرب العالمية الثانية وقبلها وبعدها وتتمثل في الديمقراطية الاسرائيلية التي تدعمت بمفهوم بناء الوطن والمصلحة الصهيونية العليا والتقاء المصالح مع القوى الغربية التي اجتمعت على تشجيع تهجير الاسرائيليين من اوربا الغربية لياخذوا وجهتين : وجهة فلسطين شرقا ووجهة الولايات المتحدة الأمريكية غربا .

ولئن اشتكت الديمقراطية الغربية من تضاؤل المشاركة السياسية امام تراجع دور الدولة التقليدية وتعاظم سلطان الدولة الاقتصادية الممثلة في الشركات متعددة الجنسية فان مفهوم الرفاه الاقتصادي مازال يصم الافواه في الغرب ليطيل عمر مفهوم الاستعمار الذي ينطلق في دورات متتالية ومازالت الديمقراطية الغربية مرتبطة بهذا المفهوم رغم اشكال المعارضة التي تظهر وتخبو في الغرب والتي تلامس الموضوع ملامسة هادئة لا تتناسب مع حجم المعاناة التي تتعرض لها المنطقة العربية وهي تواجه العصر الثالث من الاستعمار اعتبارا ان المنطقة العربية مرت بثلاثة عصور استعمارية تمثلت في:

ـ المرحلة الاستعمارية الغربية الأولى التي فككت الدولة العثمانية ووقفت على أوطانها تمارس حكما مخالفا للقيم الديمقراطية في بلدانها الاصلية .

ـ والمرحلة الاستعمارية الثانية ممثلة في الاستعمار الإسرائيلي لفلسطين وما صاحبه من نيران الحرب الباردة التي كان العالم العربي مدارها الرئيس وتحالفات القوى الغربي بلا استثناء مع القوة الاستعمارية الإسرائيلية الغازية وحرمان العالم العربي من السلاح عندما كان الشعور الوطني متأججا والدولة الإسرائيلية دون الظهور وكان ابرز علاماتها حرب العرب مع إسرائيل عام 1948.

ـ والدورة الاستعمارية الثالثة التي جاءت بالولايات المتحدة الى العراق وزودت من شهية البلدان الاستعمارية التقليدية في العودة الى المنطقة العربية من خلال حزمة من الاطروحات السياسية وما سمي بالمبادرات يدعمها صندوق النقد الدولي وابراج الهيمنة الغربية التقليدية الأخرى والحديثة ممثلة في البنك العالمي ومنظمة التجارة العالمية و الشركات الدولية التي تمسح في طريقها الحدود و جوقة إعلامية تلفزيونية ومعلوماتية مصاحبة.

وطرحت الاستراتيجية الجديدة رؤية الرقابة الاستراتيجية التي ستشتمل على مراجعتين للنهج الأمريكي المتبع حتى ذلك التاريخ تمثلت الأولى في العمل على تدمير قوة العدو ومركزها الأساسي وتمثلت الثانية في اعادة بلورة موقع الولايات المتحدة في النظام الدولي ومراجعة التوجهات المتبعة حتى تاريخ اعلان النهج الجديد من قبل الولايات المتحدة الأمريكية في مجال ترتيب علاقاتها مع العالم

وكان العالم العربي الساحة الرئيسية في المعركة الدائرة.. [12].

وقد اشتكى مفكرون ورجال قانون من فقدان الديمقراطية الغربية لمساحات واسعة من ساحاتها في الغرب وتعددت العناوين في الصحف وفي المكتبات التي تشير الى ذلك دون موارية ورأت الشعوب الغربية في اكثر من مناسبة انها لا تمرر أفكارها إلا بقدر ما تخدم مصالح القوى الاقتصادية المهيمنة داخلها وخلصت الى هذه النتائج مما تلا انهيار جدار برلين وانهيار الاتحاد السوفييتي من سياسات عسكرية نفذت في العالم كان جشع الشركات الدولية الكبرى واضحا فيها رغم ان واقع الاخلال بالعدالة والحرية لم يكن غائبا عن الديمقراطية الغربية قبل ذلك.

كما بدات الشعوب الغربية ومفكريها بدرجة اساسية تشعر بان قوانين الحرية تتقلص امام الرؤية الامريكية في فرض مفاهيم العولمة التي ساقت في طريقها كثيرا من القيم الديمقراطية والانسانية .

وللغرابة فقد ارتبطت تراجعات الديمقراطية والقانون في الغرب بانهيار الأمن في العالم العربي ما يشير إلى أن العالم العربي سيصبح دائرة حرب وفوضى ضرورية لاستمرار التدفق الاستعماري[13].

حجم التأثير الصهيوني :

وربما بدات الشعوب الغربية تتساءل عن سبب إرضاء إسرائيل بدرجة مفرطة والسكوت عن كل اخطائها في المنطقة العربية واضطهادها لأصحاب الأرض الذين لم يعد لهم غير أجسادهم يلقون بها في مغامرات متوالية لتضيف الى قضيتهم المنهارة أساسا تهمة ممارسة الارهاب .

---

12)د.خالد الغانجي/العمل المشترك والامن الاقليمي في جامعة الدول العربية والتجمعات الاقليمية العربية/ اطروحة دكتورا مقدمة لكلية الحقوق والعلوم السياسية بالمنار تونس عام 2011 انظر المقدمة.

13) Giulietto Chiesa / Député italien au Parlement européen, membre de la commission d'enquête du Parlement européen sur les prisons secrètes de la CIA ; journaliste, essayiste et président de l'association Megachip pour la démocratisation des médias / Au mépris de l'Europe et du droit L'archipel des prisons secrètes de la CIA /le Monde diplomatique /aout 2006.

و اصطدمت الصهيونية مع رموز فكرية واجتماعية كبرى على شاكلة الراهب بيار وروجي غارودي وغيرهما وفرضت عليهما الصمت ودفعت مفكرا استراتيجيا مثل الفرنسي باسكال بونيفاس الى ان يضع كتابا بعنوان : هل انتقاد اسرائيل مسموح به: EST-IL PERMIS DE CRITIQUER ISRAEL ?

ما يعني ان الحرية في العالم الغربي لم تكن بالقدر الذي تصوره اصحابه وصوروه للعالم في البداية وخاصة في مواجهتهم مع الفكر الاشتراكي فهناك مناطق لا يمكن ان ينفذ اليها التفكير بحرية ... ومع انشكاف الرؤية بعد انهيار جدار برلين تبين ان هناك سلسلة من الجدران الأخرى لا يستطيع الغرب ان يتجاوزها بحرية او ان يهدمها بسهولة .

ودخلت الولايات المتحدة والمعسكر الغربي حرب افغانستان و من ثم العراق ضد رغبة الشعوب بمن فيهم الذين قال جورج بوش انه ينتقم لهم مما جرى لذويهم في احداث سبتمبر 2001 ... وهو ما جعل مفكرين يتنبأون بان هناك تاريخ قد انتهى وانما ليس التاريخ بمجمله كما ذهب فوكوياما انما هي نهاية تاريخ الديمقراطية لتبدا هيمنة قوة الشركات الدولية والثراء .

<u>عربيا وإسلاميا : الديمقراطية تحت الوصاية الغربية.</u>

وارتبط فشل الديمقراطية في العالم العربي الى ما قبل الثروات العربية بهيمنة القوى الغربية التي تميل كما يبدو منذ ظهورها الى الإبقاء على التناقضات المدمرة في العالم العربي وتبلور ذلك مع فكرة الامبريالية التي احتل بموجبها العالم العربي مثل كثير من بلدان العالم وصولا الى العولمة و نظرية تعميم الفوضى التي طرحتها الإدارة الأمريكية للعالم العربي.

وارتبطت الديمقراطية الغربية حتى الآن بالبحث عن الثراء والرفاه المكتسب أساسا من ثروات الشعوب المستعمرة او المهيمن عليها .. ومثلما يقول كيسنجر فان الولايات المتحدة والغرب يجد نفس على خلاف مع مبادئ ويلسن عندما يتعلق الامر بالبترول العربي.

وبالمحصلة ستكون التناقاضات الثقافية مثلما نرى في تونس ومصر رافدا كبيرا للسياسة الغربية في تمرير الفوضى المحببة لإسرائيل وسببا كبيرا في الإخلال بوحدة البلدان العربية وبنية الدولة ..وتاتي لتكمل ما صنعته التناقضات الطائفية والعرقية والدينية ببعض البلدان العربية... وستحتاج البلدان العربية للحفاظ على وحدتها الى مراجعة المسالة الحضارية والانتماء الحضاري في ادارة اللعبة الديمقراطية ..لان الديمقراطية تحتاج الى ثوابت حضارية مثلما هو في الغرب وحتى في الكيان الاسرائيلي ولا أن تستمر عملية تاجيج اختلاف في المطلق تلتقط افكارها ومكوناتها من كل مكان .. وبالتالي لابد من ادارة ما للتحكم في سقوف الاختلاف الذي افرزه التثاقف مع الغرب ونقيضه لتستمر

الاوطان والا فان تباينات التثاقف والانتماءت المتعلقة به ستكون عامل انهيار كبير للبلدان ربما تعول عليه القوى الغربية في تهديم بنيان الدولة الوطنية لتسهل ادارة العالم بصورة مركزية اكثر.